كيف تنهض بالريف المصرى ثقافيا

لحضرة صاحب العزة الدكتور طه حسين بك

ألقيت هذه المحاضرة فى قاعة بيورت التذكارية

سيداتى وسادتى :

أخشى ألا أحدثكم بشىء فى هـذه المحاضرة . فان آرائى فى نشر الثقافة معـروفة قـد نشرتها فى كتب وفى فصول للصحف والمجـلات . حتى أنى أقبلت اليوم وأنا أجد فى نفسى تردداً شديداً لأنى كنت أحدث نفسى بأنى سأعيـد عليكم ماتعرفون . وأنا أعلم الناس بأن الحديث المعاد من أبغض الأشياء . ولكنى لم أتعود أن أرد لقسم الخدمة العامة طلبا إذا طلب إلى شيئا . فأعتذر اليكم إذن مما قد يعرض لكم من السأم والملل أثناء هذا الحديث الذى أخشى أن يكون معاداً . الواقع أن مسألة الريف فيما يتصل بالثقافة على أقل تقدير ليست من الخطورة أو من الدقة بالمكان الذى تشغله مسائل أخرى تتصل بالريف لسبب بسيط جدا وهو أن مسائل الريف لم تتصل بالثقافة ، وإنما هى مسائل الشعب المصرى فلا أكاد أجد فرقا بين الريف وبين المدن أو بين ناحية من النواحى المصرية وبين النواحى الأخرى ، ولا أكاد أجد فرقا بين أجزاء البلاد المصرية فيما يتصل بمسألة الثقافة . فالشعب المصرى كله فى حاجة إلى ان ننظمه من الناحية الثقافية ، ويستوى فى ذلك ريفه ومدنه ، وتستوى فى ذلك طبقاته المختلفة . ولا أكاد أشعر بأن هناك شيئا يقتضى أن نعتنى عناية خاصة بالريف إلا إذا لاحظنا أن ظروف الحياة الحديثة قـد حملت المشتغلين بنشر التعليم لأسباب ليس هذا موضع بحثها قد حملتهم على أن يعنوا بالمدن أكثر من الريف . فكثرت المدارس فى المدن وفى المراكز الكبرى وقلّت فى الريف قلة شديدة . فمن هذه الناحية يمكن أن يقال إن الريف فى حاجة إلى أن نعنى بنشر التعليم فيه أكثر من المدن التى نشر فيها التعليم ، ولكن هذه مسألة قد تتصل بالكمال كما يقال ولا تتصل بالكيان وهى مشكلة سيحلها الزمن الذى يحل أكثر المشكلات . والمسألة الحقيقية اذن ليست هى مسألة انهاض الريف من الناحية الثقافية وانما هى مسألة انهاض الشعب المصرى من الناحية الثقافية .

فالشعب المصرى فى حاجة الى أن نعنى بتثقيفه عناية تامة . وهنا تعرض المشكلات الخطرة التى تتصل بتعليم الشعب وتثقيفه لكى يعيش عيشة تلائم الظروف الحديثة التى تحيط به فى هـذه الأيام أولا . وهذه المسألة يخيل الى الناس أنهم قد فرغوا من حلها . وهم فى حقيقة الأمر قد فرغوا من حلها من الوجهة النظرية . فليس يوجد مصرى يمكن أن يناقش الآن فى أن نشر العلم والثقافة ضرورة من ضرورات الحياة الحديثة . وليس يوجد مصرى

يمكن أن يناقش الآن فى أن من الواجب الذى ينبغى أن تنهض به الدولة وأن ينهض به القادرون على المشاركة فى نشر التعليم فى جميع طبقات الشعب ، بحيث يكون أبناء الشعب جميعا سواء فى تلقى مقدار مشترك من التعليم . هذه مسألة فرغت مصر منها واتفق المصريون عليها اتفاقا لاخلاف فيه ولا يتعرض لمناقشة أوجدل ، بل ذهبنا فى ذلك الى أبعد من هذا . وينص الدستور المصرى على أن التعليم الأولى يجب أن ينتشر ويجب أن يكون الزاميا تنهض به الدولة . ويرسل الآباء أبناءهم الى المدارس راغبين راضين فان لم يفعلوا أكرهتهم الدولة على أن يفعلوا. فمن الحياة النظرية إذن اتفقنا على حل المسألة الأولى. ولكن الاتفاق النظرى شىء والتنفيذى شىء آخر. صدر الدستور المصرى منذ أعوام طويلة وصدر مشتملا على هذا النص . ومن قبل أن يصدر الدستور المصرى عنيت الحكومة بشأن التعليم الأولى وبحثت هـذه المسألة منذ سـنة ١٩١٧ ولكننا الآن فى سـنة ١٩٤٠ وما أظن أننا نستطيع أن تقول الآن إننا راضون عن الجهود التى بذلت فى نشر الثقافة العصرية فى طبقات الشعب أو نشر التعليم الأولى فى طبقات الشعب المصرى، فما زالت الكثرة العظمى من الشعب جاهلة لاتقرأ ولا تكتب ، وما زال هذا التعليم الأولى الذى وصلنا الى اذاعته نوعا ما عاجزا عن أن يحقق الغرض أو الأغراض التى من أجلها ينشر التعليم فى بلد من البلاد . والذين يعنون بنشر هذا التعليم فى وزارة المعارف أنفسهم يعترفون بهذا النقص ويعترفون أولا بأن التعليم لم ينشر كما كان ينتظر أن ينشر . ويعترفون بأن هذا التعليم وبأن المقدار الذى نشر من هذا التعليم لم يحقق الغرض الذى ينتظر ومن أجله وجد . ويحاولون بالنشرات واللوائح والمراسيم والقوانين أن يعالجوا هاتين المشكلتين . وكيف نستطيع أن ننشر التعليم بحيث يشمل الشعب كله فى أقل وقت ممكن . وكيف نستطيع أن ننشر التعليم بحيث يؤدى الى تحقيق الأغراض التى تنتظر من نشر التعليم ، ثم إنهم فى الوقت نفسه يبذلون جهودا وعناية لتمثيل هذه الأغراض التى تطلب من نشر التعليم الأولى ويختلفون عليها اختلافا ظاهرا، فمنهم من يكتفى من نشر التعليم بمحاربة الأمية بحيث يتعلم الطفل القراءة والكتابة وشيئا من الحساب، ومنهم من يرى أن هذا المقدار ليس بشىء ، ومنهم من يرى ألا بد من أن تجاوز هـذا المقدار الى مقدار آخر ثم يختلفون فى هذه المقادير، فمنهم من يذكر فى هذا التاريخ والجغرافية ومنهم من يضيف لهما اللغة العربيـة وغير ذلك وهم اذا اجتمعوا وتناقشوا وجادل بعضهم بعضا أتعبوا أنفسهم وأتعبوا سامعيهم فى البحث عن الأغراض التى تقصد من نشر التعليم .

ولست أخفى عليكم أن هذه المناقشات التى تتصل بالأغراض التى تقصد من نشر التعليم هذه المناقشات أراها من السخف والاطالة أقرب الى أى شىء آخر . فالتعليم الأولى ينشر لذاته وليس من المهم أن يكون هناك غرض معين نسير عليه ونتبينه تبينا واضحا ونقيم عليه أساس ما ننشر من التعليم .

وإنما التعليم ضرورة من ضروريات الحياة الانسانية فى هذه العصور التى تعيش فيها الأمم عيشة حضارة ورقى . فكما أن الناس لا يبحثون قبل أن يأكلوا لماذا يأكلون ويشربون وكما أن الناس لا يبحثون قبل أن يتنفسوا لماذا يتنفسون ولماذا يتعلمون، وإنما ينبغى أن يتعلموا لأن التعليم جزء توأم لهذه الحياة التى نحياها .

وليس معنى هذا أن التعليم يرمى الى غرض أو أغراض معينة، فالتعليم يحقق غرضا معينا ولكننا اقتنعنا بأن نأكل لنتقى الجوع ونشرب لنتقى ما يترتب على الظمأ من الآلام . واقتنعنا بهذا منذ نشأنا . وأصبح اقتناعنا بأن هذا شىء عادى من الأوليات . فنحن نأكل ونشرب ولا نتناقش فى هذا . واننا لم نقتنع بعد بأننا فى حاجة الى أن نتعلم أو أننا لم نقتنع بعد بما نستفيده من التعليم، لهذا نتناقش لماذا نتعلم ؟ والغريب أن الذين يتناقشون فى الأغراض التى ينبغى أن يحققها التعليم ليسوا هم الذين يحتاجون الى التعليم ولكنهم هم المتعلمون الذين ينبغى أن يقوموا بالتعليم، وهم الذين لا يحسون الجهل ولا يتعرضون لآلام الجهل ولا يشعرون بما يقتضيه الجهل . هؤلاء الناس هم الذين يتناقشون فى التعليم لا الأغراض التى ينبغى أن تطلب الى التعليم بالضبط كما يتناقش الرجل الذى أكل حتى شبع وشرب حتى روى . والذى أترف حتى أخذ حظه الكافى أو أكثر من حظه ، كما يتناقش مع نظيره ، فى حاجة الى أن يطعم طعاما حسنا ، وهل من الضرورى أن يأكل الفلاح لونا واحدا أو ألوانا من الطعام ، وهل من الضرورى أن يشرب الفلاح ماء نقيا، واذا عرضت على هؤلاء المترفين وقضيت عليهم أن يأكلوا من هذا اللون لضاقوا اذا عرضت عليهم أن يشربوا الماء القذر وألا يشربوا الماء النقى ، ولكنهم لا يضيقون ولا يثورون حين يتحدث بعضهم الى بعض بوجوب أن يرفه على الفلاح فيما يأكل وفيما يشرب وفى حياته المادية على اختلاف فروعها فالذين يتعلمون يريدون حصتهم من العلم وهم الذين يتساءلون عن أغراض التعليم . وهم الذين يتساءلون على مقدار حصة الفلاحين أو الشعب فى العلم، ذلك لأنهم لم يتصلوا بأنفسهم ولم يقتنعوا بعد ولم يتصلوا كذلك بغيرهم، والذى ينقصنا هو شىء لا يتصل بعقولنا وبملكتنا المفكرة بمقدار ما يتصل بقلوبنا وشعورنا وإحساسنا ، وبمقدار ما يتصل بشعورنا بهذه الغاية. فثمة التضامن بين أفراد الشعب وبين أفراد الطبقات مع أنه ليس هناك فرق بين أفراد الشعب . ولو أننا أحسسنا أنه ليس هناك فرق بين أفراد الشعب ، ولو أننا وضعنا أنفسنا فى مكان الفقراء والبؤساء ومتوسطى الحال الذين حرموا لذة الطعام والشراب ولذة التعليم ، ولو أننا أحسسنا ما يحسون ووجدنا ما يجدون وشعرنا بآلام الحرمان كما يشعرون ولو أننا أحسسنا هذا وشعرنا بهذا ولاحظنا أن فى هذا الحس والشعور آلاما وحرمانا لأحسسنا حاجة الناس الى التعليم . كما أنهم يريدون أن يعيشوا كما نعيش وأن ينعموا بالحياة كما ينعم المترفون. فالمسألة اذن تتصل قبل كل شىء بالقلب أكثر مما تتصل بالعقل . وتتصل بالشعور

والتضامن أكثر من أى شيء آخر ، ومن هذا أريد أن يكون هذا الحديث الذى أتحدثه اليكم الآن ، أريد أن يكون هذا الحديث موجها الى قلوبكم لا الى عقولكم ، فعقولكم حلت المسألة وكلكم مقتنعون أن نشر الثقافة ضرورة من ضرورات الحياة وبأن الشعب المصرى يجب أن يذاع التعليم فيه على أساس المساواة بين طبقاته جميعا ، بين الفقير والغنى و بين اليسر والعسر ولكن الشيء الذى ينقصنا جميعا هو المجهود الذى ينبغى أن يبذل لتحقيق هذا الشيء الذى اقتنعنا به وآمنا به ايمانا تاما . وهـذا الجهد لا نبذله الا اذا تبصرت به قلوبنا ، والا اذا وضعنا أنفسنا موضع الذين نريد أن نعلمهم ونتعرض فيما بيننا و بين أنفسنا لما يتعرض اليه هؤلاء الناس من آثار الجهل .

الواقع أن فى حياتنا المصرية فى هذه الأعوام الأخيرة ظاهرة مؤلمة وخطيرة . نلاحظها ولكننا نحاول أن نخفيها على أنفسنا ، ونحسها فى كل يوم ولكننا نستحى أن نجاهر بها . وهذه الظاهرة أن هناك قوما من المصريين يظهر أنهم قد استكثروا ماوصلت اليه مصر من الرقى على ضآلته ، ويستكثرون ما وصل اليه المصريون من التعليم على قلته ، وأنهم يستكثرون ما أتيح للمصريين من الحرية أولا ومن التعليم ثانيا ، و يظهر أنهم يخشون من نتيجة انتشار التعليم أخطارا هائلة يريدون أن يحتاطوا لهذه الأخطار ولكنهم لا يجرءون على أن يظهروا هذه الآراء . ومن العجيب أن هؤلاء القوم هم هم بعينهم الذين كانوا يدعون الى نشر التعليم منذ عشر سنين مضت ، وهم هم بعينهم الذين كانوا يجاهدون فى سبيل ترقية الحياة المصرية منذ أعوام . وهم لا يجرءون على أن يقولوا لأنفسهم إن آراءهم فى هذه المسائل قد تغيرت ، لا يجرءون أن يقولوا هذا لأنفسهم فضلا عن أن يقولوا هذا للناس ، وهم يشعرون بهذا الشعور فى أنفسهم ، ويتحايلون لأنفسهم بأنفسهم كما يتحايلون على اظهاره للناس اذا تحدثوا للناس . وتراهم يتحلون لذلك أسبابا وهمية ينسبونها الى ظروف اجتماعية جديدة يخشى اذا انتشر التعليم أن تتورط فيها مصر ، و يخشى اذا لم نحترس أن تعرض مصر لأخطار عظيمة . وأظن انى لست فى حاجة الى أن أنبهكم الى أن بين المصريين من ينادون بتحديد التعليم وأنه لا ينبغى أن يتسع مجال التعليم ، وانما ينبغى أن يقبل فيه الناس بمقادير معينة " فئة القادرين على دفع المال " وهى تلك الأسطورة التى يسمونها النبوغ أحيانا .

ولست فى حاجة الى أن أنبهكم أن كل هذه الأشياء تلتمس فى الصحف وتلتمس أحيانا فى البرلمان ، وتلتمس أحيانا فى البيئات المصرية ، والمحاولات من التضييق من نشر العلم للدرجة العالية ، أو الثانوية ، أو الابتدائية أحيانا ، لست فى حاجة الى أن أنبهكم الى هذا . فكلكم يعرف مثل ما أعرف . ولا شك اذا خلا لنفسه تألم لهذا أشد الألم . ولكن الشيء الذى أحب أن ألتفت اليه هو أن هذا النوع من التحايل لم يغن شيئا . فمهما يقل القائلون ومهما يتحايلوا ، فقد وجدت فى مصر الحاجة الى أن يتعلم المصريون ، وسيتعلم

المصريون مهما تكن الظروف ومهما تكن مقاومة نشر التعليم . وهـذه الحاجة قد وجدت بحكم الحياة المصرية الحديثة وبحكم الحياة الديموقراطية التي نحياها ، والتي ينظمها دستور يفرض نشر التعليم الأولى على الدولة ويحقق المساواة بين المصريين فى درجات التعليم وقد شعر المصرى بحقه فى هـذه الحرية وفى هذه المساواة . ومهما يبذلوا من جهود ومهما ينفق خصوم التعليم الواسع ومهما يحاولوا فلن يغيروا شعور المصريين، ولن يحولوا المصرى عن الاقتناع بحقه فى هذه المساواة . وهم فى ذلك يخلقون لأنفسهم مشـاكل هم فى غنى عن أن يخلقوها ، وخير لهم أن يبذلوها فى المعاونة على نشر التعليم وفى تيسير الأمور من أن يضيعوا هذا الجهد فى علاج مشكلة لم توجد بعد ولكنها توجد فى خيالهم .

والمسألة التى يجب أن نلتفت اليها هى أن حياتنا المصرية ديموقراطية بطبيعتها ولا أقول منذ صدور الدستور ، ولكن قبل أن يصدر الدستور . والدستور انمـا جاء منظما لهـذه الحياة الديموقراطية. وحياتنا أيها السادة مؤسسة على أشياء من أهمها الدين. والدين الذى تحيا عليه الأمة المصرية الاسلام والمسيحية . وكثرة المصريين مسلمة وقلة المصريين مسيحية، والدين يقوم قبل كل شيء على المساواة وعلى تحقيق العدل ، واجتمع على إلغاء الفرق بين الطبقات والتفرقة بين الناس فى الحقوق الواجبة .

ولأضرب لكم مثلا بسيطا من أصول الدين الاسلامى دين النبى الكريم محمد صلى الله عليه وسلم ، روى أن النبى صلى الله عليه وسـلم كان جالسا الى جماعة من كبار قريش وسادتها يدعوهم الى الاسلام وكان معنيا عناية شديدة بمكانة هؤلاء النفر من قريش ، واعتقـد أن هؤلاء النفر إذا أسلموا تبعهم غيرهم وزاد عدد الاسلام قوة ، وانهم فى ذلك إذا برجل حقير بائس وضرير هو عبد الله بن أم مكتوم قد أقبل يسعى متعثرا حتى انتهى الى النبى فسأله أن يقرئه وأن يعلمه مما علمه الله ، فقطع هذا السؤال على النبى حديثه الى كبار قريش ،وضاق النبى بهذه المقاطعة فأعرض عن هذا الأعمى ، وألح الأعمى وأمضى النبى فى إعراضه ، فأنزل الله سبحانه وتعالى على نبيه الآية الشريفة :

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ، أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ، وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ وَهُوَ يَخْشَىٰ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ . . . الخ .

فهذه الآية الكريمة أيها السادة إنما هى عتاب شديد للنبى لأنه تصدى لهؤلاء الممتازين من صناديد قريش وانصرف اليهم حتى تنكر لهذا الرجل البائس الذى جاء يلتمس منه العلم فعاتبه الله على هذا ، وأن النبى كان كل ما لقى عبدالله بن أم مكتوم رحب به وقال " أهلا بمن عاتبنى الله فيه" .

هذه الملاحظة التى تتصل بأصل من أصول الدين ، انها تتصل بالدعاية الاسلامية نفسها ولو أننا فكرنا فى هذه الملاحظة وانتهينا الى النتيجة البسيطة وهى أن الله سبحانه وتعالى لا يفرق بين غنى وفقير فى الحاجة الى العلم ، وأن الله الذى عاتب نبيه لأنه غنى بالأغنياء وكبار الناس فى الدعوة الى الاسلام ، خليق أن يعاتب أولى الأمر حين يصرفون العلم عن الفقراء واليائسين الى الأغنياء والمترفين ، وليس هناك معنى فى حياتنا المصرية إلا أن نتحدث بأن بعض المصريين يستطيعون أن يتعلموا و بعضهم يحسن ألا يتعلموا ، ولا أتحدث عن التعليم الأولى انما أتحدث عن التعليم كله ، فالمصريون جميعا من حقهم أن يتعلموا ، وعلى الدولة أن تعلمهم ، وتمكنهم من أن يتعلموا على اختلاف درجات التعليم دون أن تضرهم فى ذلك أو تضيق عليهم أو تفرق بينهم بمقتضى هذه الظروف التى لا تغير فى واجباتها شيئا ، وهى ظروف القدرة على دفع الأجر وعدم القدرة على دفع الأجر ، هذا التعليم الأولى الذى ينبغى أن تنهض به الدولة وأن تبديه وتقدمه الى المصريين جميعا دون أن تتقاضاهم أجرا عليه ، ما هو ، وما يمكن أن نقصد به اليهم أو بعبارة أدق : ما الذى ينبغى أن تعمله الدولة لتعليم المصريين تعليما أوليا ملائما لحقوقهم وملائما لواجبهم وملائما لأملهم وحريتهم الجديدة ، وما دمنا نعترف بهذا و يسجل علينا الدستور أننا أمة نعيش عيشة الديمقراطية ، فينبغى أن يكون التعليم الأولى ملائما لما تفرضه الحياة الديمقراطية على الدولة من جهة وعلى الأفراد والمجموع من جهة أخرى من الحقوق الوطنية ، ولست أعرف تصويرا أدق لواجبات الدولة فى بلد ديمقراطى من هذا التصوير الذى عاش فى فرنسا البائسة الى سنة ١٩٣٦ ، وهو من الواجب على الدولة فى بلد ديموقراطى أن تضمن للشعب ثلاثة أشياء ، الحرية ، والقوت ، والسلم ، وليس معنى هذا أن الدولة مكلفة أن توزع القوت على الشعب وأن تقدم لكل فرد من أفراد الشعب طعامه وشرابه وهو هادئ مطمئن ، ولكن معنى هذا ان الدولة تهيئ أفراد الشعب بالتعليم وبإزالة الحواجز والموانع ، ومفروض عليها أن تهيئهم لكسب عملهم دون أن تكون هناك تفرقة بينهم وهى من أجل ذلك مضطرة الى أن تعلمهم .

ولا يستطيع الفرد أن يعيش وحده فى هذا العصر ، فلا بد أن يتعامل الفرد مع أمثاله من المواطنين ، كيف يتحدث اليهم ليفهموه و يفهمهم ، وكيف يعيش معهم ليحترموا حقوقه عليهم وليحترم حقوقهم عليه ، وكيف ينهض بواجباته وهو مطمئن الى أن غيره سيقوم بواجباته أيضا . ومن أجل هذا لم يكن بد للدولة من أن تعلم الناس الذين يعيشون فيها ، ولا بد أن تعلمهم الى جانب القراءة والكتابة أوليات الحساب ، لأن البيئة التى يعيشون فيها و يتصلون بأعضائها تعلمهم من أمر هذه البيئة أشياء أولية ، فالشاب المصرى فى حاجة الى أن يعرف تاريخ هذه البيئة التى يعيش فيها ، ولا بد من أن يعرف حدود بلاده وأن يعرف حدوده الجغرافية ولو الى حد ما ، لأنه لا يستطيع أن يعيش مع مواطنيه إلا اذا عرفهم على هذا

النحو وعرفوه على هذا النحو، ولا يستطيع أن يعيش إلا إذا عرف اللغة والجغرافية وعرف كل هـذه الأشياء التى تمكن الأفراد من أن يعاشر بعضهم بعضا وهم قادرون على أن يعينوا بعضهم بعضا ومن أن ينهوا بعضهم بعضا ومن أن يساعد بعضهم بعضا، فلا شر اذن من أن تعلم الدولة التلاميذ فى التعليم الأولى اللغة العربية وتاريخ مصر وجغرافيـة مصر والنظم التى تعيش عليها الأمة المصرية .

والدولة ليست مسئولة عن هذا المقدار وحده ولكنها مسئولة معه عن أشياء أخرى وهى العناية بأجسام هؤلاء الناس وصحتهم وأخلاقهم وعقولهم . وهذا هو المقدار الضرورى الذى لابد منه واذا أردنا أن نتصور التعليم الأولى الذى يفرضه الدستور على الدولة على أن توزعه بين الناس مهما تختلف طبقاتهم ، وهذا المقدار ضرورى لأنه هو الذى يضمن تحقيق المساواة بين الناس وهو الذى يحقق الشركة بين المصريين فيما يكون طبيعة الأمة المصرية وفيما يكون طبيعة الوطن المصرى . ومتى اشتركوا فى هذا المقدار اشتراكا صحيحا أمكن بعد ذلك أن يختلفوا بمقتضى الظروف، فمنهم من يتعلموا حتى يتموا التعليم العالى ومنهم من يتعلمون حتى يتموا التعليم الفنى . ومنهم من ينصرفوا الى الحياة العملية لأن الظروف لاتمكنهم من أن يمضوا فى التعليم ولكن الدولة ينبغى أن تعضدهم بشىء من العناية بحيث لا ينسون ماتعلموا فى المدارس الأولية والذى أفهمه أن الدولة مضطرة الى أن تذيع هذا التعليم فى أسرع وقت ممكن . والذى أعرفه أن الدولة قد أطالت فى نشر هذا التعليم . ونعرف أن الدول الأخرى كانت حالها تشبه حالنا فاستطاعت أن تعالج هذه المشكلة وأن تقلل عدد الجاهلين فى بلادها أكثر جدا مما استطعنا نحن أن نقلل عدد الجاهلين . ومع ذلك فالدولة المصرية لاتنفق قليلا من المـال على التعليم، بل هى تنفق كثيرا حقا ولكن يخيل اليها أنها تنفق هذا المقدار على التعليم الأولى فى ظاهر الأمر وعلى أشياء غير التعليم فى حقيقة الأمر . فأنتم اذا أخذتم ميزانية التعليم الأولى ورأيتم كيف يدبر هذا المـال ، لرأيتم أن الدولة المصرية تعنى بهذه الناحية عناية تامة باقامة هـذه المدارس على النحو الأوربى بنوع لايمت اليه فى تأسيس هذه المدارس وفى العناية بها بحيث تصبح هذه المدارس مصدرا لشىء من الشر .

وأذكر لكم أيها السادة أننا عندما كنا صبيانا وكنا نذهب الى مكاتبنا فى الريف لم نكن نجد شيئا من الأذى عندما كنا نجلس على تلك المقاعد الخشبية أو على تلك الحصر . ولم يمنعنا هذا من أن نتعلم . ولم نجد فى ذلك أذى ولا ضررا . فليس من الضرورى إذن أن تصرف الدولة فيما تصرف فيه من تأسيس المدارس وانشائها على هذا الطراز انما الخير أن تنفق هذه الأموال فى نشر التعليم . ولست أدرى لم لا يتعلم التلاميـذ فى المساجد كما كنا نتعلم نحن . ولست أدرى لم لاتعنى الدولة بالمكاتب التى تعلمنا فيها فتمنحها قسطا من النظافة بحيث تؤهلها لأن يتعلم فيها الأطفال دون أن يكون هناك فرق بينها و بين البيوت .

ولكن هناك مشكلة أخرى فى التعليم الأولى ربما كانت أشد ، وهى مشكلة الذين يعنون بهذا التعليم الأولى والذين يقومون بنشر هذا التعليم الأولى ، من هم . وكيف يجب أن يعيشوا وكيف يجب أن يكونوا .

والذى تعرفونه جميعا أن معلم التعليم الأولى رجل متواضع ، ومتواضع بأوسع معانى هذه الكلمة . متواضع فى تعليمه . ومتواضع فى منزلته الاجتماعية . فالدولة تنظر اليه نظرة أقل ما توصف به أنها لاتلائم ما ينبغى لمعلم من الكرامة . ومتواضع فى منزلته الاجتماعية بين أهل القرية . فهم ينظرون اليه كما تنظر اليه الدولة ثم هو متواضع بعد هذا كله فى المرتب الذى تتفضل الدولة به عليه . وأقل مايمكن أن يقال : إن الدولة تنسى أن هـذا المعلم ينبغى أن تكون له منزلة اجتماعية لا أقول ممتازة لأنى من خصوم الامتياز ولكن ينبغى أن تكون له منزلة اجتماعية معقولة فهو أولا أمين تستأمنه الدولة على تنشئة الجيل الجديد . والدولة والشعب يطلبون الى المعلم فى المدارس الأولية أن يهيئ الطفل ليكون رجلا حرا يقوم للوطن بالواجبات الوطنية و يستطيع أن يكفل المحافظة على مركز مصر وعزتها واستقلالها . فاذا أردت من المعلم أن يهيئ لك طفلا كريما حرا عزيزا فابدأ بأن تجعل هـذا المعلم نفسه حرا عزيزا و بأن تعلمه تعليما حسنا . فانك لاتستطيع أن تأخذ علما من جهل ولا تستطيع أن تأخذ عزة من ذل . فالمعلم الذى لايحسن علم تاريخ مصر لايستطيع أن يعلم تاريخ مصر . والمعلم الذى لا يحسن علم الجغرافيا المصرية لايستطيع أن يعلم الجغرافية المصرية . والمعلم الذى لم تمكنه ظروف الحياة من أن يكون حرا عزيزا صريحا فى معاملاته كريما فى علاقاته بالناس ، لايستطيع أن يكون حرا فى معاملاته كريما فى علاقاته بالناس إلا اذا تعلم . فابدأ اذن بتعليم هـذا المعلم على أحسن وجه ممكن . ثم عامل هذا المعلم أحسن معاملة ممكنة . واسمح لهذا المعلم أن يكون له مالغيره من المصريين من آمال فى الحياة . له أبناء كما لنا أبناء . ومن حقه أن يفكر فى أن يربى أبناءه تربية حسنة . ومن حقه أن يفكر فى أبنائه ، يجب أن تكون حياتهم خيرا من حياته ، و يجب أن يرقوا الى مالم يبلغه هو من المنزلة الاجتماعية ، فمكنه من أن يربى أبناءه ومن أن يربيهم على هذا الوجه . ومكنه من أن يبسم للحياة . ومن أن تبسم الحياة له ومكنه من أن يشعر بشىء من هذا الأمل الذى يشع الحياة فى الفرد والجماعة .

واذا حققت له هذا فاطلب اليه بعد ذلك أن يعنى بتنشئة الطفل وأن يكون لك طفلا حرا عزيزا . اذا استطاعت الدولة أن تصل الى هذا كله .

فما الذى فعلته الدولة . فعلت أيسر وأبسط ما يجب عليها أن تفعله . وهو نشر هذا المقدار الضئيل من التعليم بين طبقات الشعب . ولكن هذا ليس كل ما ينبغى أن تفعله الدولة . ولسنا ملومين اذا طالبنا الدولة بأكثر من هـذا . فالدولة تفرض علينا واجبات لها أول وليس لها آخر . والدولة تطلب الى المصريين جميعا أن يكونوا مستعدين

لبذل أموالهم وأرواحهم اذا طلب اليهم . وكذلك نفوسهم اذا طلبت اليهم ، وكل ما يملكون عند ما تحتاج الأمة الى ما يملكون . ففى مقابل هـذه الأشياء التى تطلبها الدولة ، والتى لا نستطيع بحال من الأحوال أن نرفضها اذا طلبتها الدولة ، ففى مقابل هـذا كله من حقنا أن نطلب الى الدولة أن تمكننا على الأقل من أن نكون خداما أمناء بطبعنا لنستجيب لها وننفعها دون أن نضرها ونعرضها للخطر . من حقنا على الدولة ومن حق الدولة علينا أن تمكننا من أن نتعلم التعليم الذى يمكننا من أن نكون رجالا مستجبين لا أن نعرض الوطن للخطر ونعرض الأراضى الوطنية للخطر و نعرض الثقافة الوطنية للخطر . ومن حقنا ان نطالب الدولة بأن تمكننا من هـذا دون أن تطلب منا أجرا ودون أن تطلب أجرا من الأفراد . فالدولة لا تستطيع أن تجيب هذا لأنها فى حاجة الى المال ولكن لها موارد خصبة فيما أعتقد لا يستطيع أحد أن يردها عنها . واذا احتاجت الدولة الى الضرائب أو الى الدفاع لا يستطيع أحد أن يقول فى الضرائب شيئا . ولا يستطيع انسان أن يفهم لماذا تحتج الدولة بأنها لا تجد من المال ما تنفق على التعليم دون أن تلجأ الى الضرائب لتنفق منها على التعليم . ولماذا تحتج الدولة بأن التعليم الثانوى أو بأن التعليم العالى يكلفها نفقات هائلة دون أن تلجأ الى الضرائب واذا كان هذا حقيقيا واذا كانت ميزانيتها لا تكفى ، واذا كان البرلمان يراقب ميزانيتها مراقبة دقيقة لتحقق هذا دون أن تلجأ الى الضرائب .

وأعترف أيها السادة بأنى لا أستطيع أن أفرق بين حاجة مصر الى التعليم وحاجة مصر الى الجيش ، بل انى أعترف لكم أنى أعتقد أن حاجة مصر الى التعليم أشد جدا من حاجتها الى الجيش ، والسبب بسيط جدا ، هو أن الجيش انما تحتاج اليه لدفع غارات العدو الأجنبية اذا تعرض لها ؛ وما من شك فى أن كل أمة تتعرض بين حين وحين للغارات الأجنبية فلا بد للجيش للدفاع عنها ، ولكن هناك غارة أجنبية مستقرة فى أراضى مصر تفسد على المصريين حياتهم فى كل يوم . وتفسد أخلاقهم وتفسد عليهم كل شىء ، وهـذه الغارة الأجنبية التى تعيش معنا فى الشارع وفى البيت وفى كل مكان ، والتى هى أخطر ألف مرة ومرة على الحياة المصرية ، هذه الغارة المستقرة هى غارة "الجهل" فى الدولة التى تطالبنا بالضرائب وتكرهنا على دفع هذه الضرائب . وعلى الدفاع الوطنى ، من حقها بل من واجبها أن تطالبنا بالضرائب وتكرهنا على دفع الضرائب لأجل دفع هـذا العدو المستقر بيننا وهو "الجهل".

و إذن فلست أدرى كيف تسوغ بعض بيئات لنفسها أن تتحرج أو أن تتصور هـذا التحرج الغريب ، حرج نشر التعليم وحرج التوسع فى نشر التعليم . حقيق هذا شىء يعجز عقلى عن فهمه لأنه بطبيعته لا يستطيع فهم " دقائق الأشياء " . ولكن الشىء الذى لا أستطيع أن أخفيه عليكم عن فهم هذه المواقف التى يوجدها الذين يحبون أن يعلموا أبناءهم أن مدارس الدولة لا تكفى لتعليم أبنائكم . فَلِمَ لا توسع الدولة الميزانية ؟

يقولون إن الدولة ليس لها إلا جامعة واحدة فلم لا تنشئ الدولة جامعة ثانية ويقولون أشياء كثيرة يمكن أن يرد عليها .

والدولة تتوسع فى أشياء كثيرة يمكن ألا تتوسع فيها . فاذا جئنا الى التعليم الذى لابد أن تتوسع فيه وجدنا الضيق فى الميزانية . ووجدنا قلة المدارس ووجدنا المشكلات . كل هذا يأتى من سبب واحد هو الذى قلته لكم . وهو أن النشاط الذى امتلأت به قلوبنا ونفوسنا فى أول نهضتنا الوطنية بعد الحرب الكبرى قد أخذ يخمد شيئا فشيئا . وهو أن النشاط قد أخذ يسير من نفوس بعض الناس ، فانتشار التعليم ضرورة من ضرورات الحياة ولكنها ضرورة خطرة . خطرة حقا على بعض البيئات .

تصوروا الفلاح المصرى الذى يتضور من الآلام والذى يشكو من الجوع والبؤس بما لا يمكن تصوره والذى يشعر بالحرمان مصبحا وممسيا ، تصوروا هذا الفلاح اذا تعلم تعليما حسنا وتصوروا هذا الفلاح الشاب الذى تعلم تعليما حسنا اذا عرضت عليه أو فرضت عليه الحياة التى يحياها أبوه . هل يقبلها . كلا لن يقبلها . ولن يرضى من البؤس والشقاء ما رضى به آباؤه لأنه لن يطمئن الى هذه الحياة الاجتماعية التى يحياها المصريون الآن وسيحاول تغييرها والشر كل الشر فى ذلك — لأن محاولة هذا التغيير سترفع الأجور ولا ينبغى أن ترفع الأجور — محاولة هذا التغيير أيها السادة سترفع الضرائب ولا ينبغى أن ترفع الضرائب .

وهذه المحاولة ستقضى على كثير من الناس أن يقتصدوا من لذاتهم وشهواتهم . والعلة الحقيقية إذن والخطورة التى لا تلائم حق المصريين فى الحرية ، والتى تدعو كثيرا جدا من الناس الى أن يحاولوا الاقتصاد فى نشر التعليم ، هو الخوف من نشر التعليم ، والخوف من التعليم قد يحول بيننا وبين ما نريد من التوسع فى التعليم الآن .

ولكنى قلت لكم فى أول هذا الحديث إن هذا الخوف وإن هذه المشكلات وهذه المقاومات فى اتساع التعليم ، إن هى إلا تعليلات ومحاولات لا تغنى عنها شيئا ، فقد بدأنا فى حركة ولا بد أن تنتهى هذه الحركة الى نهايتها ، وهذه الحركة التى بدأنا بها هى حركة الحياة الحديثة التى تقوم على انتشار التعليم وعلى المساواة فى نشر التعليم ، ونحن مضطرون سواء أردنا أو لم نرد الى التعليم والى أن نتعلم .

والخير كل الخير أن يرتقى التعليم وأن تتوسع حياتنا باختيارنا ، أو على كره منا ، فنحن يقومنا اتساع التعليم . لأن الذين يحاولون التقليل من التعليم أو التقليل من عدد المدارس أو التقليل من عدد المتعلمين ويتعللون لهذا كله بالتعليلات الكاذبة يجب أن يفكروا وأن يقدروا بأنهم اذا نجحوا اليوم فسيخذلون باكرا وسيكرهون على أن يعلموا المصريين .